الفكر المصرى
فى العصر الحديث

(١)

من الشخصيات المنسية فى التاريخ المصرى الحديث شخصية محمد بك الألفى الذى أوشك أن ينتزع الملك من محمد على .

هذا المملوك من أعجب الشخصيات وأقدرها أيضًا . . وأنا أحكى لك حكايته بسبب صلته بالفكر المصرى الحديث ، وأعرفك به حتى نستكشف قصة العلاقات والصلات الفكرية بين مصر وأوربا قبل قدوم الحملة الفرنسية التى قادها نابليون بونابرت وهو يحلم بإقامة إمبراطورية الشرق ، فقد شاع خداع أن هذه الحملة هى التى فتحت أبواب الحضارة الحديثة فى مصر .

كان محمد الألفى من مماليك مراد بك الذى انهزم أمام قوات بونابرت فى معركة الأهرام الشهيرة ، وقد اشترى مراد بك هذا المملوك بألف أردب من الغلال ولذلك سمى بالألفى ، وكان جميل الصورة ، صعب المراس ، قوى الشكيمة ، فأحبه مراد بك وأعتقه .

واشتهر الألفى بك شهرةً عظيمة ، وما زال أحد شوارع القاهرة يحمل اسمه ، حيث كان قصره يقع على ناحية هذا الشارع أمام بركة الأزبكية التى ردمها الخديوى إسماعيل وجعلها حديقة عندما أنشأ دار الأوبرا التى احترقت ، وقبل ذلك احترق قصر الألفى فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ فى أثناء حريق القاهرة المعروف ، وكان هذا القصر الجميل العربى الطراز قد أصبح فندقًا هو فندق شبرد .

وقصة هذا القصر من أعجب القصص ، فقد وضع الألفى بك نفسه تصميمه الهندسى ، ورسم له صورة فى ورق كبير ، وأعطى التصميمات لأحد أمرائه لتنفيذها ، وكان هو غائبًا خارج القاهرة ، فلما حضر ، وجده قد أخطأ فى الرسم فاغتاظ وهدم غالب ما بنى ، وهندسه على مقتضى عقله ، وأوقف أربعةً من أمرائه على البناء ، كلّ أمير فى جهة من جهاته الأربع .

وقد وصف الجبرتى هذا القصر وصفًا شائقًا ، وقال : « إن الألفى وضع فيه التحف والأشياء والتحف العظيمة التى أهداها إليه الإفرنج ، وذُكر أنه أهدى إليه من الإفرنج أيضًا فسقية رخام فى غاية العظمة ، فيها صورة أسماك مصورة يخرج الماء من أفواهها ، جعلها فى البستان » .

وذكر الجبرتى أن الأستاذ الفاضل الشيخ حسن العطار الذى أصبح شيخًا للأزهر فيما بعد ، كتب بيتين من الشعر نقشًا بماء الذهب أعلى باب قاعة الجلوس وهما :

شُموس التهانى قد أضاءت بقاعة
محاسنها للعين تزداد بالألف
على بابها قال السرور مؤرخًا
سماء سعاداتى تُجدّد بالألفى

وأقام الألفى فى قصره آخر شهر شعبان ٢١٢ هـ ، وأمضى فيه ستة عشر يومًا حتى منتصف شهر رمضان ، ثم ذهب إلى إقليم الشرقية مقر حكمه .

ووصف الجبرتى شخصية محمد بك الألفى ، فقال : إنه بعد أن كان فاجرًا ظالمًا عسوفًا ، ترزّن عقله وانهضمت نفسه ، وتعلق قلبه بمطالعة الكتب ، والنظر فى العلوم والفلكيات والهندسة ، وأشكال الرمل ، والأحكام النجومية ، والتقاويم ومنازل القمر ، ويسأل عمن له إلمام بذلك ليستفيد منه ، واقتنى كتبًا فى أنواع العلوم والتواريخ ، واعتكف بداره ورغب فى الانفراد بنفسه » .

ومن أعاجيب الألفى بك عندما كان حاكمًا لإقليم الشرقية أنه صنع قصرًا من الخشب مفصّلا قطعًا ويركّب بشناكل متينة قوية ، ويحمل على عدة جمال ، فإذا أراد النزول فى محطة تقدم الفراشون وركّبوه ، فيصير مجلسًا لطيفًا يصعد إليه بثلاث درج ، ويفرش بالطنافس والوسائد ويسع ثمانية أشخاص ، وهو مسقوف وله شبابيك من الجهات الأربع ، تفتح وتغلق بحسب الاختيار ، وحوله الأسرة من كل جانب ، وكل ذلك من داخل دهليز .

وعندما كان الألفى فى إقليم الشرقية وصلت حملة بونابرت إلى مصر ، واتخذ نابليون من قصر الألفى فى حى الأزبكية مقرًّا للحكم ، وفى حديقة هذا القصر قُتل الجنرال كليبر بطعنة خنجر من يد سليمان الحلبى .

ثم أصبح قصر الألفى فى عهد محمد على مقرا لمدرسة الألسن التى أنشأها رفاعة بك . . حتى تحول إلى فندق شبرد واحترق يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ كما قلت لك .

وعندما احتل الفرنسيون مصر سافر الألفى بك إلى بلاد الإنجليز ، واختار من مماليكه خمسة عشر شخصًا أخذهم معه . وولّى أحد مماليكه (بشتك بك) – ويسمى الألفى الصغير – مكانه وأوصى أمراءه ومماليكه بطاعة خليفته ، وسافر وغاب سنة وشهرًا وبضعة أيام .

وكانت رحلة الألفى بك إلى إنجلترا من أهم دلائل الاتصال بين مصر وأوربا ، وقد حدثتك عن صلته بالإفرنج الذين قدّموا له هدايا عندما بنى قصره الشهير ، وذكرت لك ما رواه الجبرتى عن المعارف والعلوم التى كان يهتم الألفى بك بدراستها ، حتى استطاع تصميم رسم هندسى لقصره الذى كان من أجمل قصور القاهرة .

وقد عاد الألفى بك من إنجلترا إلى مصر بعد خروج الحملة الفرنسية ، وكان محمد على قد تولى الحكم ، وكانت عودة الألفى من أخطر الأحداث فى تاريخ مصر الحديث ، فقد أحضر معه أحدث الأسلحة من إنجلترا بعد أن عقد معاهدة فى لندن مع حكومة بريطانيا .

وكان الألفى قد عين له سفيرًا فى بريطانيا ، اسمه (أمين بك) ، الذى وصل إلى الإسكندرية فى عدة مراكب وأشخاص من الإنجليز ، كما يقول الجبرتى ، ثم أصدر أمرًا لسفيره (أمين بك) بالذهاب إلى إنجلترا ، فسافر وأحضر له مطلوبه من السلاح والعتاد ، وكان الألفى بك مقيمًا فى بلدة (حوش عيسى) فى البحيرة ، حيث كان يستقبل الإنجليز ويقيم لهم الحفلات ، ويدرب عساكره بالسلاح الحديث .

يقول الجبرتى : إن الألفى بك شاع ذكره فى الآفاق ، وإن الدولة العثمانية لا تخاطب غيره ، برغم أن محمد على كان قد عينه السيد عمر مكرم واليًا على مصر .

وأعد الألفى بك أوّل جيش حديث فى مصر ، ثم استعد للقاء (محمد على) ومحاربته وعزله ، وإعلان استقلال مصر ، ووصل بجيشه إلى بلدة (شبرامنت) فى الجيزة ، وكان – كما يقول الجبرتى – فى هيئة عظيمة هائلة ، وجيوش تسد الفضاء ، وهم مرتبون طوابير ، ومعهم طبول ، وصحبته قبائل العرب من أولاد على والهنادى وعربان الشرقية .

ووقف محمد على مع عساكره الأرنؤود مذهولاً ، وهو يتعجب ويقول :

– هذا طهماز الزمان . . وإلّا إيش يكون ؟

ولم يستطع محمد على الاقتراب من جيش الألفى بك ، وهو أول جيش حديث أُنشئ فى مصر الحديثة .

ثم حدثت المفاجأة المذهلة التى يرويها لك الجبرتى بكلماته :

« ولم يزل (الألفى) سائرًا حتى وصل إلى قريب قناطر « شبرامنت » ، فنزل على علوة هناك ، وجلس عليها ، وزاد به الهاجس والقهر ، ونظر إلى جهة مصر (القاهرة) وقال : يامصر انظرى إلى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك وأراذل الأرنؤود ، وصاروا يقتضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك .

ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى ، وفى الحال تقايأ دمًا وقال :

– قضى الأمر ، وخلصت مصر لمحمد على ، وما ثمّ أحد ينازعه ويغالبه .

ثم أحضر أمراءه وأمَّرَ عليهم شاهين بك » .

وكان محمد على يقول كما روى الجبرتى أيضًا :

« ما دام هذا الألفى موجودًا لا يهنأ لى عيش ، ومثالى أنا وهو مثال بهلوانين يلعبان على الحبل ، لكن هو فى رجليه قبقاب .

فلما أتاه المبشر بموت الألفى قال بعد أن تحقق من ذلك :

– الآن طابت لى مصر ، وما عدت أحسب لغيره حسابًا » .

وكان الموت المفاجئ لمحمد بك الألفى من الأحداث المثيرة فى تاريخ مصر الحديث ، وقال الجبرتى : إن هذا كان من سعد (محمد على) ، وقد بكت عليه مصر حتى إن بنات العرب اجتمعن لما بلغهن موته ، وَصِرْن يندبنه بكلام عجيب تناقلته أرباب المغانى يغنون به على آلات اللهو المطربة ، وركبوا عليه أدوارًا وقوافى .

لقد حكيت لك كل هذه الحكايات لسببين :

١ – أن اتهام عصر المماليك بأنه ظلم وظلام اتهام باطل ، ويجب علينا إعادة النظر فى تاريخ مصر حتى نصل إلى الحقيقة ، فقد كان الألفى بك يتغنّى بمصر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لأنه آمن بأنه مصرى ، ونحن لا نعرف جنسيته الأصلية ، ولا من أىّ بلد جاء . فى حين ظلّ محمد على وكل أسرته – عدا إبراهيم باشا – يتفاخرون بانتمائهم التركى مع أنهم من الألبان وليسوا من

الترك ، وكان سبب هذا التفاخر بالانتماء التركى راجعًا إلى وجود السلطة الحاكمة الكبرى فى اسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية العثمانية .

وعندما اشتدّ طموح محمد على بفضل مصر وعساكر مصر من الفلاحين حتى وصل جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا بن محمد على إلى أبواب اسطنبول ، لم يكن (محمد على) نفسه مؤمنًا بمصر ، برغم أنه قال إن أصحاب نعمته هما : الفلاح المصرى والسلطان محمود خان سلطان آل عثمان . لأن ولى نعمته الحقيقى كان الفلاح المصرى ولم يكن السلطان التركى ، وقد عبر إبراهيم باشا عن هذه الحقيقة عندما قال إنه مصرى ، وإن شمس مصر هى التى نصرته .

ولكن الملوك من أبناء محمد على ظلّوا على غَيِّهم القديم ، يتفاخرون بأنهم أتراك ، مع أنهم كانوا من أهل ألبانيا ، وكانوا يستخدمون اللغة التركية فى مراسيمهم ، حتى أصبح فى قصر عابدين دفتران أحدهما تركى والثانى عربى ، وهذا الازدواج اللغوى لم يكن موجودًا فى عصر المماليك ، فقد كانت رسائل السلاطين المماليك تُكتب باللغة العربية ، وكان منهم شعراء فصحاء بالعربية ، ومنهم السلطان المؤيد ، صاحب الجامع الشهير فى القاهرة عند باب زويلة .

٢ – أن اتهام مصر بأنها عرفت النهضة الحديثة بعد قدوم حملة بونابرت باطل من أساسه ، فقد كانت مصر على صلة دائمة بأوربا ، حتى إن محمد بك الألفى سافر إلى إنجلترا كما رويت لك ، وشكّل جيشًا مصريًّا عصريًّا بأسلحته المتقدمة عندما كان نابليون بونابرت يسكن فى قصره عند شاطىء بركة الأزبكية فى قلب القاهرة .

لقد اتهم عصر المماليك فى مصر بأنه عصر استبداد وظلم وظلام ، ولكننى حاولت إعادة النظر فى هذا الموضوع بعد قراءات طويلة فى تاريخ سلاطين المماليك ، ثم تاريخ الحكم التركى العثمانى بعد سقوط آخر السلاطين المماليك « الغورى » تحت سنابك الخيل فى موقعة (مرج دابق) على مشارف مدينة حلب ، حيث امتدّ ملكه من مصر إلى الشام وإلى ما يقرب من طرابلس الغرب . وحتى وادى حلفا فى الجنوب . كما كان يبسط سلطانه حتى عدن فى أقصى بلاد اليمن ، وكان الحجاز أيضًا مما ينضم إلى سلطته بسبب الأماكن المقدسة التى كان سلطان مصر يتولى حمايتها .

ثم انتهت دولة سلاطين المماليك فى مصر ، بعد دخول السلطان سليم بن عثمان القاهرة ، وانهزام السلطان طومان باى عن طريق الخيانة والغدر أمام قوات الغزو التركى العثمانى لمصر ، حتى عُلِّق (طومان باى) مشنوقًا بحبل على باب زويلة فى مشهد دراميّ عنيف ذرفت فيه

القاهرة كل دموعها ، حتى اختلطت دموع النساء والأطفال بماء النيل .

ولكن شنق (طومان باى) لم ينه عصر المماليك ، بل إنهم استمروا يشاركون الأتراك فى السلطة ، فقد كان هؤلاء المماليك قد تمصروا ، وكان يحلو لهم تسمية أنفسهم بالأمراء المصريين ، وكان بعض عظماء الفلاحين من أهل مصر يشتركون معهم فى الإمارة أيضًا ، أى فى سلطة الحكم ، وقد روى الجبرتى حكايات كثيرة عن هؤلاء الأمراء الفلاحين الذين كان لهم دور ظاهر وبارز فى الحياة المصرية ، حتى إن أحدهم اتخذ لنفسه لقبًا هو : الفلاح .

وكان هذا الأمير الفلاح مصريًّا قويًّا أبيًّا ، لأنه رفض أن يُباع أطفال الفلاحين من الصبيان والبنات فى سوق الرقيق كما يباع أطفال المماليك من بيض وسود ، وقال كلمته التى أبطلت بيع أبناء الفلاحين فى السوق :

« هؤلاء أحرار لا يُباعون » .

واشترى الأمير الفلاح المملوكى كل أطفال الفلاحين وردهم إلى أهلهم أحرارًا سالمين .

بعد هذه الحادثة لم يجرؤ بكوات المماليك على خطف أطفال الفلاحين من القرى ، وبيعهم فى السوق كما يباع المماليك .

خلال هذه الرحلة الطويلة لم يحدث أن أصبح الطفل المصرى رقيقًا يباع فى سوق ، عندما كانت أسواق الرقيق قائمة فى الشرق وفى أوربا أيضًا ، بل إنها كانت من أروج الأسواق خلال الحروب الصليبية التى قضى عليها سلاطين المماليك بعد انتصارات صلاح الدين فى معركة حطين .

وفى عصر الأمير المملوكى (على بك الكبير) الذى استقل بمصر ونازع سلطان آل عثمان فى اسطنبول ، وكانت له دولة ممتدّة الأطراف مثل دولة السلطان الغورى ، شارك على بك الكبير فى السلطة أميران فلّاحان مصريان ، هما الأمير (سويلم بن حبيب) فى الشمال عند قليوب ، والأمير همام فى الصعيد ، حيث كانت له السلطة ابتداءً من أسيوط حتى أقصى الجنوب ، وكان مقر حكمه فى مدينة فرشوط ، وقد وقَّع معه (على بك الكبير) معاهدة سلام .

– إن فكرة إعادة تصحيح التاريخ المصرى تحتاج إلى إعادة النظر فى حقائق هذا التاريخ ، وقد كان أستاذنا الدكتور محمد حسين هيكل قد وضح بعض معالمها عندما ادعى الاستعماريون الإنجليز أن مصر لم تعرف الاستقلال منذ نهاية عصر الفراعنة حتى الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ بعد سقوط الثورة العرابية .

obeikandl.com

زعموا أن حكام مصر كانوا من الأجانب منذ انتهاء عصر الفراعنة ، وكان ردّ الدكتور هيكل باشا عليهم هو ما قاله من أن ملوك الإنجليز وملكاتهم ليسوا من الإنجليز ولكنهم من الجرمان ، وهذه حقيقة تاريخية ، وقد وجدت إحدى ملكات بريطانيا مدفونة فى كنيسة ألمانية فى قلب ألمانيا ، لأنها أوصت بأن تدفن فى أرض أجدادها .

ولكن آخر ملوك أسرة محمد على – وهو الملك فاروق – أوصى بأن يدفن بعد موته فى مصر ، وقد دفن جثمانه فى مصر بالفعل .

هذه المفارقة فى الفكر هى التى تحدد شخصية مصر .

ملكة بريطانية من أصل ألمانى توصى بأن يدفن جسدها فى ألمانيا .

وملك مصرى من أصل تركى يوصى بأن يدفن جسده فى مصر .

لذلك قلت لك إننا نظلم عصر المماليك ظلمًا كبيرًا عندما نتهمه بالظلم والظلام معًا . . . فقد كان عصرهم هو عصر الظلم ، ولكنه لم يكن عصر الظلام . . . ويجب علينا عندما نفكر فى تاريخ مصر أن نفرق بين الظلم والظلام .

وقلت لك أيضًا إنهم كان يحلو لهم أن يلقبوا أنفسهم بلقب :

« الأمراء المصريين » .

وهذه التسمية فى ذاتها تحمل شخصية مصر .

وبهذا الفكر المستنير دافع الدكتور محمد حسين هيكل باشا عن شخصية مصر ، وقال : إن الحاكم لو كان أجنبيًّا لا يلغى شخصية الشعب الذى يحكمه مادام خاضعًا لإرادة شعبه الذى يحكمه ؛ لأن الحاكم تابع للشعب ، وليس الشعب تابعًا للحاكم .

وخلال تلك الأيام التى ثارت فيها قضية الحاكم والمحكوم ، نشرت مجلة (المقتطف) ترجمة لكتاب عالم بريطانى اسمه (السير إدوارد كيث) ، وهو عالم متشعب الاتجاهات فى الجيولوجيا ، والتاريخ ، والجغرافيا والآثار ، ولكنه فى ثنايا كتاباته كان واحدًا من الاستعماريين الإنجليز ، وقد ادعى أن حكام مصر لم يكونوا مصريين منذ انتهاء عصر الفراعنة على طريقة أمثاله من دُعاة الإمبراطورية البريطانية ، التى وطدت ملكها عن طريق تزييف تاريخ الشعوب الأخرى ، حتى ادَّعَى شاعرها (كولريدج) وهو شاعر الملكة فكتوريا ، أن : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، وظلّ هذا الشعار قائمًا سنوات عديدة منذ القرن التاسع عشر ، أو قبله بقليل ، حتى القرن العشرين . ونحن نقترب من نهايته ، ولم يعد الحديث عن الشرق

والغرب هو حديث عالمنا اليوم ، ولكنه أصبح حديث الشمال والجنوب . . . الشمال المتقدم والجنوب المتخلف .

القضية واحدة .

كانوا فى عصور الاستعمار القديم يتحدثون عن الشرق والغرب .

وأصبحوا اليوم فى عصر الاستعمار الجديد يتحدثون عن الشمال والجنوب .

ولكن موقع مصر جغرافيًّا وحضاريًّا وثقافيًّا بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، كان السبب الأساسى فى هذه المواقف التى جعلت الصراع العالمى يحوم ويدور حول مصر .

إن ما حدث فى عصر (على بك الكبير) من تحالفه مع قياصرة الروس الذين أرادوا الوصول إلى المياه الساخنة فى البحر المتوسط ، هو ما حدث فى عهد جمال عبد الناصر عندما تحالف مع السوفيت ، وكانوا يريدون أيضًا الوصول إلى المياه الساخنة فى البحر المتوسط ، أو الوصول إلى قلب إفريقية عن طريق مصر.

ولكن (على بك الكبير) أو (جمال عبد الناصر) لم تكن لهما رغبة سوى استقلال مصر ، وليس خضوع مصر لقوة عظمى من قوى العالم القديم أو الحديث ، وكان الحلف القديم أو الجديد تعبيرًا عن صداقة ، وليس تعبيرًا عن خضوع أو مذلة ، ولم يفهم قياصرة الروس فى العهود القديمة هذه الحقيقة ، ولم يفهمها أيضًا قادة الحزب الشيوعى السوفيتى فى أيامنا ؛ لأن المصالح تطغى على فهم الحقائق .

أنا لم أكن أحب الحديث عن السياسة ، ولكننى وجدت نفسى داخل تيارات فكرية توجهها السياسة ، أو تتوجه إلى أهدافها عن طريق السياسة ، ولم يعد فى استطاعتى الفصل بين الفكر والسياسة .

إن المعلم الأول عند اليونان أرسطاطاليس جعل السياسة أساسًا للفكر ، فكيف أفصل بين الفكر والسياسة ؟

والمعلم الثانى فى دار الإسلام ، أبو نصر الفارابى ، كانت خلاصة أفكاره هى ما كتبه فى كتابه السياسى : آراء أهل المدينة الفاضلة . . . فكيف ينفصل فكرى بين السياسة وبين الفن والأدب والعلم والثقافة ؟

إن مصر كانت دائمة الاتصال بالعالم شرقًا وغربًا ، وشمالاً وجنوبًا ، وقد ضعف هذا الاتصال بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى عهد السلطان الغورى ، وما كان من

obeikandi.com

استيلاء المستعمرين الأوربيين على الهند وما حولها ووصولهم إلى شواطئ جزيرة العرب حتى عدن ، فبعث الغورى الأسطول المصرى لمطاردتهم ، ولكن سقوط دولة المماليك أنهى الصراع المصرى الأوربى ، وبالتالى أضعف اتصال مصر بالعالم الأوربى ، ولكنه لم يقطع أوصال هذا الاتصال .

ولذلك فإن الأحكام القاطعة التى أصدرها بعض المؤرخين أو الدارسين ، وصارت من القضايا المسلم بها بغير مناقشة ، أصبحت فى حاجة إلى مناقشة .

ليس صحيحًا أن عصر المماليك كان عصر ظلام ، بل إنه كان من أعظم عصور الحضارة المصرية ، وشواهد ذلك ما زالت قائمة فى القاهرة ، فى الآثار الإسلامية الرائعة من مساجد وأسبلة ومدارس ومستشفيات ، بقى منها مستشفى السلطان قلاوون ، أول مستشفى عام ومجانى فى العالم ، حيث كان يجمع التخصصات الطبية فى كل الأمراض الباطنية والجراحة وطب العيون ، بجانب الصيدلة ، وكان العلاج والدواء فيه بالمجان ، وقد كان يوم افتتاحه من الأيام المشهودة فى تاريخ القاهرة ، وبعد تلاوة القرآن ، وشرب شراب الليمون كالعادة فى الحفلات الرسمية المملوكية ، أعلن السلطان أنه أوقف للمستشفى أوقافًا للإنفاق عليه ، وتبعه فى ذلك الأمراء ، حتى أصبحت أوقاف مستشفى قلاوون كافيةً للإنفاق ، وظل تابعًا لوزارة الأوقاف حتى عهد قريب منا ، ولست أدرى ماذا جرى له ؟

كان رئيس هذا المستشفى طبيب مصرى عالمى هو (ابن النفيس) مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، ولا شك فى أن الأطباء من زملاء ابن النفيس كانوا على درجة رفيعة من العلم ، ولكنّ تاريخهم غامض وأسماءهم مجهولة لنا .

وعندما أقام السلطان قلاوون مستشفاه لم يكن فى أوربا أطباء ، بل كان ملوكها يطلبون أطباء من مصر لعلاجهم .

ومن مشاهداتى العابرة أننى دُعيت فى خريف عام ١٩٦٨ للمشاركة فى الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على مولد العالم المستشرق الألمانى الشهير (كارل بروكلمان) وكان أستاذى الدكتور إبراهيم بيومى مدكور هو الممثل الرسمى لمصر فى هذا الاحتفال ، ونظم لنا المحتفلون من أساتذة جامعة (مارتن لوثر) القائمة فى مدينة (هاله) على مقربة من (لايبزيج) رحلةً لزيارة مكتبة مخطوطات عربية نادرة فى مدينة اسمها (جوتا) . . . وهناك كانت المفاجأة النادرة المثيرة .

هذه المكتبة يضم كتبها قصر قديم من قصور البارونات ، ولكل باب من أبواب هذا القصر

obeikandi.com

مفتاح طوله نصف ذراع ، وكانت هذه المفاتيح الحديدية المثقال فى عهدة مدير المكتبة ، ويحملها له رجل قوى شديد داخل صندوق من الخشب، ولها أرقام ، وبدأ المدير يفتح الأبواب واحدًا بعد الآخر حسب ترتيب الأرقام المكتوبة ، كما كان يغلق الأبواب أيضًا عندما نجتازها بابًا بعد باب ، وكأننا فى طريقنا إلى قدس الأقداس .

إياك أن تشعل سيجارة .

إياك أن تدوس على خشب الباركيه اللامع فى عنف .

سر على الأرض طائرًا كالحمامة .

كان معنا أساتذة من المغاربة والعراقيين والشوام ، وكلهم من فضلاء أهل العلم ، وأمامنا فى الرحلة المثيرة هو أستاذى الدكتور إبراهيم بيومى مدكور الذى حاولت أن أتعلم منه الفلسفة والفصاحة ، وهو أحد أعلام المصريين فى هذا العصر .

ثم وصلنا إلى القاعة الكبرى فى قصر بارون (جوتا) حيث توجد المخطوطات والخرائط والكرات الأرضية التى صنعها علماء المسلمين .

المشهد رائع يشبه بانوراما خيالية فى عقل إنسان يريد أن يتعلم .

انتقال من عصر حديث مكتوب على بابه ثلاثة حروف من أبجدية يتعلمها الأطفال (أ . ب . ت) أو (أبجد .. هوز .. حطى كلمن) فى عرف الأبجدية العربية ، إلى عصر قديم كان للعلم فيه مكان واحد هو : عقل الإنسان .

أصبحت كل الأبجديات فى كل اللغات شيئًا واحدًا هو العلم .

وأصبحت اللغة لغة العقل ، وليست لغة اللسان .. أو الحروف المكتوبة .

الطفل ينطق بلغة أبوية ، ولكنه يفكر بعقله ، ويفهم بفكره ، ويتطور وينمو فى عصره ، وله لغته التى يفكر بها ، ويفهم الحياة والوجود بحروفها غير المكتوبة فى كتاب أو المنطوقة على لسان .

وفى قاعة المكتبة التى كانت قاعة استقبال فى قصر بارون (جوتا) أدركت أن العلم حين يصبح سطورًا على ورقة لا يموت عندما يموت صاحبه ، وأن كرة الأرض الساذجة التى صنعها رجل مجهول الاسم على قدر علمه بالكون ، إنما هى جزء من عقل الإنسان الذى أراد رؤية الكون ، وكانت لغته بالفكر والعقل وليست باللسان أو اللغة ، فصور لكل البشر حقيقةً من حقائق الكون .

المعلم ليس له وطن واحد ، وليست له لغة موحدة ، وهو ملك للبشر جميعًا ، حتى أن علماء عصرنا وضعوا قواعد للنحو يحاولون تطبيقها على كل اللغات .

وعندما شاهدت فى قصر بارون (جوتا) الخرائط الملونة لقسمى الأرض فى دائرتين لم تكن فيها أمريكا الشمالية والجنوبية ولا أستراليا ، تذكرت (طارق بن زياد) المحارب البطل الذى وصل بفرسه حتى شواطىء الأطلنطى عند الدار البيضاء وقال كلمته المشهورة بعد أن أصبحت قوائم فرسه فى ماء المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات كما كان يسمى . . . قال طارق :

– يارب . . . لو علمت أن وراء هذا البحر أرضًا يمكن أن أرفع فوقها راية الإسلام لمضيت إليها . . . وسرت نحوها .

كان (طارق بن زياد) يتطلع إلى المجهول وراء بحر الظلمات وهو المحيط الأطلسى أو الأطلنطى ، وكانت هذه الصورة الرائعة البديعة أمام خيالى وأنا واقف داخل هذه المكتبة الألمانية .

تنبه عقلى فجأةً إلى شيء حدث فى حياتنا عندما انفصل العلم عن الحياة ، فأصبح العقل وهو من نور الله ملفوفًا داخل أوراق صفراء مطبوعة فى مطبعة من مطابع حى الأزهر فى القاهرة ، وتذكرت أن أحد المشايخ الأجلاء كتب ألفيةً فى الجغرافيا مثل ألفية (ابن مالك) فى النحو ، وهى ألف بيت من الشعر المنظوم تحتوى على علم من العلوم .

تذكرت وأنا فى مدينة (جوتا) شيخ الجغرافيا صاحب الألفية الشعرية المنظومة ، وقد عرفته وكان ابنه من أصدقائى ، وحضرت بعض مجالسه فى بيته وأنا فى عزّ شبابى ، وكنت أعجب من إصراره على رأيه ، ولست فى حلٍّ من ذكر اسمه احترامًا لأستاذيته رغم استبداده فى الرأى والمنطق والعقل .

هذ الشيخ صاحب (الألفية فى علم الجغرافية) قال :

وأفريقية ياعالمًا بحالى
تحدّ بالبحر من الشمال

وقال أيضًا :

والأرض قالوا إنها كره
وقولهم هذا ما أكفره

وكان من حق أن أتذكر هذا الشيخ عندما كنت فى مكتبة بارون جوتا ، فقد رأيت الكرة الأرضية ، ورأيت الخرائط التى حدثتك عنها تقسم الدنيا فى دائرتين تؤكد أن الأرض كرة . . وأن هذا ليس كفرًا كما قال الشيخ .

ولكن هذه الحقائق العلمية لم تكن كل شىء فى هذه الرحلة العلمية المثيرة ، فقد كان فى المكتبة أكثر من أربعة آلاف مخطوط فى العلوم الجغرافية والطبية والصيدلية .

الشىء الهام هو أن هذه الكتب العلمية كانت فى معظمها من تأليف علماء مصريين على رأسهم الطبيب ابن النفيس الذى حدثتك عنه من قبل ، كطبيب عالمى اكتشف الدورة الدموية الصغيرة ، وكان رئيسًا لمستشفى قلاوون فى القاهرة .

وما قولك فى أن السلطان حسن بن قلاوون كان قد أنشأ جامعةً كاملةً شاملةً فى الجامع الذى ما زال قائمًا فى حى القلعة بالقاهرة ؟

فى هذا الجامع وهو جامع السلطان حسن الذى ضربه نابليون بالقنابل من قلعة صلاح الدين عندما قامت ثورة القاهرة ، أربع قاعات للمحاضرات حسب المذاهب الأربعة فى الإسلام وهى مذاهب :

* مالك .
* الشافعى
* ابن حنبل .
* أبو حنيفة .

وكانت هذه القاعات للمحاضرات تجمع الأساتذة على أعلى مستويات العلم ، حتى كان جامع السلطان حسن مسجدًا للصلاة ، وجامعًا أو جامعةً لكل العلوم ، وتحفل بكل الآراء والنظريات العلمية قبل أن توجد جامعات فى أوربا ، وكانت هذه الجامعة أو الجامع فى أروقتها الأربعة ، ومكتبتها ، ومساكن العلماء فيها ، من أبدع وأروع ما قدّمه سلطان مصرىّ للعلم فى مفهوم الحرية العلمية برغم أن السلطان حسن نفسه كان ظالمًا غشومًا على طريقة عصره المستبدّ الطاغى .

ونحن الآن لا نستطيع أن نفرش جامع السلطان حسن بالحصير الرخيص ، ولكن هذا السلطان استطاع أن يجعل باب جامعه مصنوعًا من الخشب المشغول بالذهب ، وهذه حقيقة تاريخية ، فقد خلع السلطان المؤيد صاحب الجامع الشهير باسمه عند باب زويلة هذا الباب

obeikandl.com

الذهبى ، ووضعه على باب جامعه ذى المئذنتين المقامتين فوق باب زويلة أو بوابة المتولى فى عرف عامة المصريين عند حى الغورية .

ثم فقد الباب وسرق الذهب الذى كان مرصعًا على الباب .

وكان السلطان قلاوون قد أعدّ بابًا للكعبة الشريفة ، وأراد أن يرصّعه بالذهب ، فأفتاه العلماء بأن يدقه بالفضة ، فأطاعهم ، وصنع باب الكعبة مرقومًا بالفضة ، وأراد أن يضعه بنفسه فى الكعبة ، ثم حمل هذا الباب فوق مراكب فى النيل حتى وصل إلى قنا ، ثم حمل على الجمال حتى وصل إلى القصير ، وعبر البحر الأحمر حتى ميناء ينبع ، واستمر فى الرحلة على ظهور الجمال حتى بلغ مكة شرفها الله .

وأراد السلطان قلاوون أن يدق باب الكعبة بمسامير من الفضة ، كما أفتى علماء الأزهر ، فعجز عن ذلك ، وقال له النجار الذى صنع الباب ، إنه لابد من دقه بمسامير الحديد حتى يثبت فى مكانه ، ثم توضع عليها رؤوس من الفضة كما أراد السلطان الذى دقّ أوّل مسمار فى باب الكعبة ، ثم حجّ وطاف وسعى .

وأنت ترى أن تاريخ مصر حلقات متصلة لا أوّل لها ولا آخر ، وأنا حائر .

من أين أبدأ . . وإلى أين أنتهى ؟

قد لا يصدق كثيرون أن (محمد بك أبو الذهب) صاحب الجامع والمدرسة المقامة أمام الجامع الأزهر ، وتحتها دكاكين للجزارين ، ومحلات عصير القصب ، والمكتبات ، وباعة السجاير ، قد أوْقف وقفًا عظيمًا لمكتبة المدرسة التى أقامها داخل الجامع ، وهذه الوقفية إحدى دلالات الحضارة المصرية ، وقد نشرت نصّها الكامل مجلة (كلية الآداب) فى جامعة القاهرة ، اعترافًا بهذه القيمة الحضارية العظيمة التى تحافظ مصر عليها عبر كل العصور ، وهى قيمة الكتاب والمكتبة التى تؤصل العلم فى مصر .

وهذه النزعة المصرية ظلت سائدةً طوال العصور ، حتى أن القائد الفاتح إبراهيم باشا ، صاحب التمثال الشهير فى ميدان الأوبرا بالقاهرة ، وهو ابن محمد على كان يتفاخر بمصر ، ويقول :

– مصرتنى شمس مصر وأصبحت مصريا .

وهناك خطأ شائع عن المماليك وهو أنهم كانوا يرطنون باللغة العربية ذات اللكنة التركية ، مع أن بعض سلاطين المماليك كانوا شعراء ، ومنهم السلطان المؤيد شيخ ، وقد حمل لقب

obeikandi.com

(شيخ) لأنه كان يحفظ القرآن . وكان ينظم الشعر الغزلى الرقيق الذى كان يتغنى به وكان له شأن عظيم فى عصر المماليك ، ولكن المؤرخين لم يهتموا بتسجيل تاريخ هذا الفن الرفيع لأنهم اعتبروه شيئًا تافهًا يسقط همم الرجال ، حتى إن الجبرتى كان يعترض على وجود بيوت الغناء والطرب فى القاهرة ، وقال إن كل بيت من هذه البيوت كان يقف عليه شخص لقبه (الخلبوص) . . . وكان هذا الشخص يعلن اسم كل داخل إلى البيت للسهر والاستمتاع بالغناء والطرب ، وذكر الجبرتى أن بعض علماء الأزهر كانوا يذهبون إلى هذه البيوت ، فيصيح الخلبوص عند قدومهم ودخولهم :

– مولانا الشيخ العالم العلامة فلان .

واشتد الجبرتى فى لوم هؤلاء العلماء لومًا لاذعًا .

وأنت ترى أن هذا الفن الرفيع الذى ذاع وشاع وأطرب الأسماع فى عصر المماليك حتى كان واحد من السلاطين ينظم له الشعر ويضع له اللحن ، أصبح فنًّا تطارده السلطة فى عصر سلطان آخر بسبب النساء .

ولا شك فى أن الألحان التى نسمعها اليوم ليست إلا صدًى لألحان قديمة مصرية أصيلة ، وهى ليست تركية كما يظن أصحاب تاريخ الموسيقى .

إن قصيدة :

وحقّك أنت المنى والطلب .

التى غنتها أم كلثوم فى عصرنا ، وقالوا إن ملحّنها هو الشيخ أبو العلا ، ليست إلّا قصيدة قديمة جدًّا ، ولحنها قديم جدًّا ، وهى من نظم شيخ الأزهر وشيخ الإسلام (الشيخ عبد الله الشبراوى) ، وقد توارثها المغنّون ومنهم (ابن رحاب) أشهر المطربين فى هذا العصر ، وقد كان هذا المطرب رئيسًا لفرقة الشبابة السلطانية ، وهى الفرقة الموسيقية التى أنشأها السلطان المؤيد ، وكان ينظم لها الأشعار ، ويلحن لها الألحان .

ونحن لا نعرف كثيرا عن الموسيقى والغناء فى عصر المماليك ؛ لأن الخلط بين هذا العصر وبين عصر الترك العثمانيين ، جعل مؤرخى الموسيقى ينسبون الألحان الشرقية للأتراك .

ولكن الغناء والموسيقى فى عصر المماليك ، رغم قلّة مصادره التى تمكننا من معرفة حقائقه ، كان فنًّا هامًّا ، حتى إن السلطات كانت تحصل ضرائب كثيرة من أصحابه ، وكان يطلق عليها (رسوم المغانى) ، وفى عصر الغورى كانت طوائف المغنّين والمغنّيات ومن معهم من أصحاب

الموسيق ، يتجمعون عند (بركة الرطل) فى حىّ الفجالة الحالى ، وكانت (بركة الأزبكية) مقر الأمراء والعلماء ، وعند شاطئها أقام (محمد بك الألفى) قصره الشهير الذى حدثتك عنه فى بداية الكلام .

وقد تطرق الفساد إلى طوائف المغنين والمغنيات الذين اتخذوا مساكنهم حول (بركة الرطل) ، وجعلوا البركة ذاتها مسرحًا لزوارق الليل ، حتى إن بعض جوارى السلطان الغورى هربوا من القلعة إلى (بركة الرطل) مما أغضب السلطان العجوز فأرسل عساكره إلى تلك الأماكن للتفتيش وإثارة الذعر بين أهل الفن بحثًا عن جوارى السلطان .

كل هذه دلائل على أن فن الموسيق والغناء كان صوت الأجيال جيلاً بعد جيل فى حقبة طويلة من الزمان ، فقد ولد الشيخ عبد الله بن محمد الشبراوى سابع شيوخ الأزهر فى سنة ١٦٨٠ ميلادية ونحن الآن فى سنة ١٩٨٢ ميلادية . .

ثلاثة قرون من الزمان . . ثلاثمائة سنة مضت .

ثم بقيت أغنية شيخ الأزهر مولانا الإمام الشيخ عبد الله الشبراوى هذه السنين الطوال ، ولها لحنها وموسيقاها ، فكيف كانت الموسيق والألحان من قبلها ؟

فى عصر الدولة الطولونية اشتهرت أغنية (قطر الندى) بنت (خمارويه) . . ابن أحمد ابن طولون ، فى زفافها إلى خليفة بغداد :

• الحنه الحنه يا قطر الندى

وما زالت تتردد بلحنها حتى اليوم ، كما كانت هناك أغنيات أخرى غيرها أشهرها أغنية (سهران ياليل وياالقمر)

وفى عصر المماليك ألف المؤلفون الموسوعات الكبرى فى حضارة الإسلام ، ومن أهمها معجم (لسان العرب) أضخم وأهم معاجم اللغة العربية ، وقد ألفه ابن منظور أحد كتاب ديوان الإنشاء بمصر ، وهناك مقدمة ابن خلدون المشهورة ، وخطط المقريزى ، وكتاب (صبح الأعشى) لشهاب الدين القلقشندى ، وغير ذلك من الكتب الجامعة التى تشكل أضخم موسوعات الثقافة الإسلامية .

برغم كل هذه الحضارة الباذخة ، ظل عصر المماليك متهمًا ، والأسباب مجهولة ، ولم يقدم أحد من الباحثين دليلاً واحدًا على هذا الاتهام ، مع أن تراث الحضارة الإسلامية اجتمع فى هذا العصر .

وقد أثرت هذه الحضارة الإسلامية في أوربا خلال عصر المماليك ، الذى أعتبره امتدادًا لحضارة الإسلام بعد انتقال الخلافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس قاهر التتار .

كان سلاطين المماليك وأمراؤهم قد استعربوا بعد أن أسلموا ؛ ولذلك حافظوا على تراث العرب والإسلام معًا .

أما سلاطين الترك من آل عثمان فإنهم أسلموا ولم يستعربوا ؛ ولذلك ضيّعوا تراث العرب والإسلام ، بسبب نزعتهم العنصرية التى جنحت بهم إلى الكفر أحيانًا عندما اعتقد العامة الجهلاء منهم أن الجنس التركى أعلى من الجنس العربى ، وقال قائل منهم :

– لو أن محمدًا ﷺ عربى فإن الله سبحانه وتعالى تركى .

لعن الله القائل ، ولعن الله القول .

ومن الأقوال المأثورة عن الشيخ الأكبر جمال الدين الأفغانى حكمته الشهيرة التى قالها للسلطان عبد الحميد عندما كانت دولة الخلافة العثمانية فى اسطنبول تلفظ آخر أنفاسها .

قال الشيخ الأكبر للسلطان التركى :

– لو استعرب الترك لعاد للإسلام مجده وعزته .

ولكن الأوان كان قد فات ، وكان الزمان لا يملك إصلاح الخطايا والأخطاء .

وقد احتفظ سلاطين المماليك بعروبة مصر ، ولم يكونوا أصحاب رطانة كما تخيّل بعض الناس ، وكان عصرهم هو عصر الموسوعات فى حضارة الإسلام كما قلت لك ، كما كان عصر الفن الإسلامى العربى الذى اشتهر فى الدنيا باسم الأرابيسك أى الفن العربى .

وعندما كانت مصر تملك كل هذه العلوم والآداب والفنون لم يكن للترك شىء من هذا كله ، حتى إن السلطان سليم العثمانى بعد انتصاره على سلطان مصر الغورى فى موقعة (مرج دابق) ، وبعد شنقه للسلطان طومان باى على باب زويلة بالغدر والخيانة ، أخذ من مصر كل وسائل الحضارة حتى القرداتية والبغبغانية ، وأنت تعرف القرداتى الذى يلعب مع قرده ويسحبه معه بالسلسلة وبيده الطبلة التى يدق عليها بخيزرانة صغيرة يرقص القرد ويمثل ما يطلبه منه صاحبه مثل (عجين الفلاحة) أو (نوم العروسة) وما يشبه ذلك من فنون شعبية مصرية .

أما طوائف (البغبغانية) فقد كانوا يقومون بلون آخر من الأدب الشعبى المصرى ، الذى يعتمد على الحوار بين الببغاء وصاحبها الذى يحملها معه فى قفص ، ثم يدير الحوار حتى تنطق

البغباء بالكلمة المناسبة فى كل موقف ، وقد أعجب السلطان سليم بهذه اللعبة ، فجمع كل (البغبغانية) من القاهرة وأخذهم معه إلى اسطنبول حتّى يتفرّج عليهم ابنه ، كما أخذ كل طوائف الآلاتية من أصحاب الموسيقى الذين يدقّون على الدفوف والطبول والأوتار ، وتعلم منهم الترك هذه الصنعة ؛ لأن الأتراك كانوا أجلافًا لا يعرفون من الأنغام سوى الموسيقى النحاسية ودقات طبول الحرب .

وكان المصريون يعرفون الناى والربابة والطبلة الفخارية والدف والطار وآلات موسيقية كثيرة منها الهارب وآلة القانون التى ابتكرها الفارابى فى عصر سيف الدولة وهو عصر الدولة الإخشيدية فى مصر ، وقد ظلت الموسيقى المصرية والشامية فى كل ألحانها وأنغامها منسجمة متوافقةً حتّى اليوم لأنها جاءت من مصدر واحد .

حتى أن الشيخ محمد شهاب الدين الشاعر المصرى عندما جمع الألحان التى كانت سائدةً فى عصر محمد على فى كتابه الشهير (سفينة شهاب) لم يستطع أن يفرق بين ألحان مصر والشام فوضعها كلها فى كتابه على أنها ألحان العصر .

ولكن القضية التى أثارت كل هذا الكلام . هى قضية اتصال مصر بالحضارة الأوربية فى العصر الحديث ، وهذه القضية معقدة بل شديدة التعقيد ؛ لأن مصر لم تنفصل عن أوربا بل كانت دائمة الاتصال بشعوب البحر المتوسط فى شبه جزيرة البلقان وما حولها وفى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا .

وكان هذا الاتصال يضعف فى بعض العصور ، ولكنه لا ينقطع ، بل إن أوربا كانت تعيش دائمًا داخل مصر حتى خلال فترات ضعف الاتصال ، فقد كانت فى القاهرة حارة الإفرنج قبل قدوم حملة بونابرت ، وقد تحدث الجبرتى كثيرًا عن أهل هذه الحارة التى كانت موجودةً فى حى الموسكى ، وكانت تضم التجار فى غالب الأحيان ، كما كان فيها بعض أدعياء الطب الذين أضرّوا بالناس ضررًا بليغًا حتى اضطرت السلطة الحاكمة فى أواخر العصر العثمانى المملوكى إلى منعهم من مزاولة هذه المهنة .

لقد ضخم المؤرخون المحدثون من قيمة الحملة الفرنسية على مصر التى ظلت ثلاث سنوات أو أكثر قليلاً ، وزعموا أنها كانت بداية العصر الحديث فى الحياة المصرية بسبب مطبعة أو معمل كيمياء وطبيعة وما يشبه ذلك من مظاهر مادية لحضارة أوربا ، حتى اعتقد كثيرون أن هذا الزعم حقيقة ، وكأن مصر كانت فى غيابات الجهل والظلام ثم خرجت إلى النور .

وساعد على تضخيم هذه الفكرة الساذجة روايات الجبرتى عن مشاهداته عند الفرنسيين الذين كانوا بغير شك أكثر تقدمًا من المصريين فى مجالات علمية وفنية كثيرة ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذه السنوات الثلاث التى أمضتها حملة بونابرت فى مصر هى التى نقلتها إلى العصر الحديث ؛ لأن حضارة مصر المستمرة الدائمة تنتقل بها من عصر إلى عصر حتى هذه اللحظة ، وهى حضارة قادرة على الأخذ والعطاء عبر كل العصور .

ولو صح ما زعموا عن أثر حملة بونابرت على مصر من التعريف بأشكال حضارية مادية أو علمية أو فنية ، فإن عصر عباس باشا الأوّل يكون أهم من ذلك وأخطر ، حيث أنشئت فى مصر أول خطوط للسكك الحديدية بعد اختراعها فى انجلترا ، وكانت مصر هى أوّل دولة فى العالم تستخدم هذه السكك الحديدية بعد بريطانيا ، مع أن عصر عباس الاوّل كان من عصور الظلام والظلم .

كما كانت مصر أوّل دولة عرفت السينما بعد اختراعها فى فرنسا ، وقد عرضت أفلام السينما الصامتة فى القاهرة بعد عرضها فى باريس مباشرة ، وكان الذى عرضها هو مخترع هذا الفن بالذات .

إن الواقع التاريخى لمصر يؤكد أنها تملك دائمًا حضارةً مستمرة تأخذ وتعطى ، وهى أول دولة فى الشرق كله استطاعت وصل حياتها بالحضارة الحديثة قبل حملة بونابرت وبعد حملة بونابرت .

ونحن لا نستطيع تحكيم السياسة فى الحضارة ؛ لأن عناصر الأصالة فى الحياة المصرية لا يحكمها حاكم ، ولا يتحكم فيها عصر ، وإلا فإنها تفقد قيمتها الذاتية التى تحمل طابع الدوام والاستمرار ، كما أن التخلف والتقدم لا يغيران من طبيعة هذه الحضارة الثابتة ، ولكنه يشكل المدنية فى صور عصرية تختلف أشكالها ، وهى فى نفس الوقت لا تغير القيم الحضارية لمصر .

إن المدنية هى التى تسبب التقدم والتخلف ، ولكن شعبًا مثل الشعب المصرى له حضارة ومدنية ، لا يجوز أن يقال إنه بدأ عصرًا حديثًا فى حياته بسبب معرفته للطباعة أو لبعض التقدم فى علوم الكيمياء والطبيعة وغيرها ، ولو صحّ هذا الزعم لكان الألمان أعظم قدرًا من الفرنسيين ؛ لأنهم هم الذين اخترعوا فن الطباعة ، وهذا غير صحيح على الإطلاق ؛ لأن العلم لا وطن له ، وهو قسمة مشتركة بين كل الشعوب ، ولو أن بونابرت لم يحضر معه مطبعةً لها

حروف عربية ، لاستوردها المصريون من أوربا قبل الثلاث سنوات التى حدثتك عنها .

وأنا أحدثك هذا الحديث الطويل ، حتى تعتقد معى أن الحملة الفرنسية لم تكن سببًا من أسباب بداية الحياة الجديدة فى مصر ؛ لأن مصر بذاتها وكيانها كانت قبل حملة بونابرت تستعد لعبور مرحلة من مراحل حياتها ، لتصل إلى وجودها المعاصر فى ذلك العصر ، مع وجود حضارتها الأصيلة الثابتة .

وأنا أحب أيضًا أن تعتقد معى أن كل ما تقرر من أقوال ونظريات فى تاريخ شعبنا ليس قضايا ثابتة لا تحتمل المناقشة ، ولكنها قضايا عليها نزاع فكرى متراكم يعلوه غبار كثير .

إننا فى مرحلة إزالة الغبار المتراكم الكثيف فوق تاريخنا الحديث ، وقد أردت بكتابة هذه الصفحات القليلة من حياة عظماء مصر أن نعرف بعض الحقيقة فى تيّار حياتنا المعاصرة من جانب واحد هو الفكر على اختلاف اتجاهاته العلمية والأدبية والفنية ، ولكن هذا لا يكفى لنفض الغبار .

هناك قضايا كثيرة فى التاريخ المصرى المعاصر تتطلب منا نفض الغبار عنها .

هناك قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية لا زالت تؤثر فى حياتنا اليوم مع أن عمرها قد يبلغ قرنين من الزمان ، بل إننا لم نجد لها الحل الصحيح رغم الثورات والانتفاضات المتتالية قبل حملة بونابرت وبعدها حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى تعتبر نهاية المطاف فى الحركة الوطنية المصرية المتنوّرة التى وضعت حدًّا فاصلاً حقيقيًّا بين التحكم الأجنبى وبين الحكم الوطنى .

إن تجربة الحكم الوطنى منذ عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٨٢ عمرها ثلاثين عامًا فى بلد عمره سبعة آلاف سنة .

وقد تفجرت خلال هذه الفترة القصيرة زمنيًّا ، كلّ هذه القضايا التى أحدثك عنها ، وكانت أخطر قضية متفجّرة أيضًا فى هذه الفترة هى قضية الصراع بين السلطة والفكر ، وهذه هى القضية القديمة فى حياة مصر ، وهى التى تستطيع أن تشكّل مفهوم الديمقراطية المصرية اليوم بعد تجارب عديدة من ممارسة الشعب المصرى لحقه فى الحياة بإرادته الذاتية الحرة .

إن كلّ مشاكلنا اليوم حاول أسلافنا من عظماء مصر إيجاد حلول عملية لها بطريقة علمية أو فنية واضحة ولم يكونوا يعيشون بأفكارهم فى ظلام ، بل كان كل واحد منهم له شعاع مضىء .

- رفاعة بك حاول وضع النشيد الوطنى المصرى .

• علي مبارك خطط القاهرة ، وجلب المدنية الحديثة إلى مصر فى بناء المدارس ومحطات السكك الحديدية ومراكز البوليس وغيرها من الأبنية العامة . . وأصلح الخطأ فى القناطر الخيرية عندما أوشكت أن تنهار .

• محمد قدرى وضع الشريعة الإسلامية فى مواد قانونية مثل قانون نابليون حتى تصبح منفذة فى المحاكم .

• محمود حمدى الفلكى أقام علم الفلك مرةً أخرى فى مصر بالعلم ، وليس بالخرافة واعترفت به أوربا .

• محمد على البقلى تولى تدريس الطب باللغة العربية وأعاد (ابن سينا) إلى الحياة المعاصرة .

• محمد عثمان جلال نقل إلينا مسرح موليير الفرنسى إلى اللغة العربية ، وعلمنا فن التراجيديا .

هؤلاء العظماء وغيرهم من الذين يمثلون الحركة الفكرية المصرية المعاصرة ، هم الذين صنعوا لنا ما نحن فيه الآن من رغبة وتلهف إلى مواكبة الحياة العصرية ، وهم فى الواقع قطرة ماء فى محيط لازالت أمواجه ترتفع ، لتصعد بنا إلى قمّة الموجة فى دنيا تموج بالفكر علمًا وأدبًا وفنًا وثقافة .

عاشوا جميعًا فى صراع بين السلطة والفكر وانتصروا جميعًا بالفكر فوق السلطة .

حتى الذين أصابتهم ضربة الشمس مثل الأستاذ محمد بيومى ظلّت أسماؤهم ساطعةً فوق الشمس .

إن مصر المفكرة العاقلة هى التى تدفع أبناءها إلى إعادة صنع الحضارة ، وهى التى تصنع به أبناءها أمثال هؤلاء العظماء جيلاً بعد جيل فى حركة مستمرّة لا تتوقّف ولو تعثرت فى بعض الأحيان . . . وسنبدأ معًا حكاية هؤلاء الذين صنعوا حضارة مصر فى العصر الحديث .

(٢)

خلال رحلة قصيرة عبر الزمان استطاع عدد من العلماء والمفكرين المصريين أن يفتحوا أبواب الحضارة الجديدة .

لقد تبعثرت أسماء عدد من المصريين الفلاحين بين ٢٩١ رجلاً سافروا إلى فرنسا وانجلترا من أجل طلب العلم بين عام ١٨٢٦ و١٨٤٨ . ولا تعجب إذا سمعت أسماء الخواجة أرتين والخواجة اسطفان وتيمور خسرو وهنرى روسى وغيرهم من الأرمن والشركس وأولاد الذوات بين أسماء أبناء الفلاحين من أمثال الشيخ رفاعة ومحمد بيومى وسيد أحمد الرشيدى وعيسى البحراوى ومحمد على البقلى وآخرين كثيرين سأروى لك قصة كفاحهم من أجل بناء مصر .

والظاهرة التى تلفت النظر هى أن أبناء الذوات ومن لاذ بهم من الأجانب كانوا يتعلمون العلوم الإدارية من أجل تولى الوظائف الحكومية ، وأن أبناء الفلاحين كانوا يتعلمون الآداب والعلوم والترجمة من أجل إثراء الثقافة المصرية .

ويذكر الباحثون المعاصرون اسم (رفاعة الطهطاوى) دائمًا كلما تذكروا نهضة مصر الحديثة ، وهذه حقيقة لا شك فيها . فقد روى الدكتور محمد على البقلى أنه بعد عودته من البعثة فى فرنسا ، نال رتبة أميرالاى ، وكانت وظائف الدولة فى ذلك العصر ترتب عن طريق الرتب العسكرية ، فسعى إلى أستاذه رفاعة واجتمع معه فى المدرسة الحربية بالقلعة التى كانت إذ ذاك تحت نظارته ، وقبل يده الشريفة ، وقال له :

« إنى لا أنسى صنيعك على طول الزمان ، وما يزال يلهج بشكرك منى القلب واللسان » .

لقد كان رفاعة أستاذ الأساتذة ، وكان أول مترجم نشأ بالديار المصرية من أبنائها كما يقول تلميذه السيد صالح مجدى ، واستطاع بذكائه الخارق أن يكون جيلاً من المثقفين المصريين تسعى إليهم السلطة ، ولا يسعون إلى السلطة . وكان سندهم الوحيد هو العلم .

ولكن رفاعة لم يكن هو الوحيد فى اعتناق فكرة العلم الحديث من أجل بناء مصر ، بل كان له شركاء فى أفكاره ، وكان له تلاميذ أيضًا اعتنقوا الفكرة بإيمان وإصرار .

وخلال الرحلة الأولى القصيرة التى لم تزد عن ربع قرن ، والتى بدأت بها الحديث ، ظهر جيل النوابغ من أبناء الفلاحين ، وقبل أن تنتهى الرحلة كان أنبغهم قد مات بضربة شمس فى

الخرطوم ، وكانت وفاته مأساةً دامية عند جامعة باريس ، فقد حدث أن جاءت إلى القاهرة بعثة فرنسية أوفدتها تلك الجامعة للبحث عن شاب مصرى اسمه (محمد بيومى) رشح للعمل أستاذًا بالجامعة الفرنسية وعرفت البعثة العلمية أنه أرسل إلى الخرطوم ليعمل مدرسًا للحساب فى مدرسة ابتدائية ، فأكملت البعثة رحلتها إلى الخرطوم . وحين وصلت إليها ، قابلت رفاعة رافع الطهطاوى ناظر المدرسة الابتدائية ، وعرفت منه أن (محمد بيومى) قد مات بعد إصابته بضربة شمس ، وألّف أحد زملاء بيومى من الفرنسيين كتابا عنه سماه (محمد بيومى فى منفاه) طبع فى باريس عام ١٨٥٠ وهى السنة التى لقى فيها هذا النابغة وجه ربه ، بعد أن نفاه عباس الأول مع غيره من الأساتذة إلى الخرطوم .

واستكملت المأساة صورتها فى القاهرة بعد مصرع عباس الأول ، وتولية سعيد ، فقد عاد الأساتذة المنفيون من الخرطوم وعلى رأسهم رفاعة . وكان فيهم نابغة آخر هو(أحمدطايل) تلميذ بيومى وزميله . فقد مات طايل فى بولاق بعد وصوله بليلتين اثنتين .

وأنا لا أروى هذه المآسى لأزعج القارئ ، ولكن لأضع أمامه صورةً من كفاح هؤلاء العلماء المصريين الذين فتحوا لنا أبواب النهضة الحديثة .

لقد ظلت النظرية التى تقول إن حملة بونابرت على مصر هى التى فتحت أبواب العصر الحديث فى بلادنا تتردد على أقلام الدارسين سنوات طويلة ، وما زالت تتردد حتى اليوم ، وكأنما أصبحت هذه النظرية مما يجب أن نوافق عليه بغير مناقشة .

كتب الأدب والتاريخ تقول ذلك .

أوّل مطبعة وأوّل جريدة وأوّل معمل كيميائى . . وأوّل صورة رسمت بالزيت . . وأول ناد ليلى اسمه (تيفولى) بحى الأزبكية . . وأوائل كثيرة غير ذلك جاءت مع بونابرت إلى القاهرة .

والشيخ الجبرتى كتب صفحات عن العجائب والغرائب التى شاهدها عند الفرنسيين

كل ذلك صحيح .

ولكن هل معنى ذلك أن الفرنسيس قد غيروا الحياة المصرية التى كانت قائمةً تحت حكم المماليك ؟

لقد فتح المصريون عيونهم على هذه العجائب والغرائب ، ولكنهم لم يقرءوا كتاب (وصف مصر) الذى ألفه علماء حملة بونابرت ، ولم يستولوا على مطبعة بونابرت ذات الحروف العربية ، ولم يتعلموا العلم الحديث الذى أذهل عقل الشيخ الجبرتى .

الشيء الوحيد الذى تعلّمه المصريون من حملة بونابرت هو أن هناك حياة جديدة لم يعرفوها من قبل ، ويجب أن يعرفوها .

وعندما جاء محمد على وولّاه المصريون أمرهم لأنه تركى عثمانى يقبله السلطان خليفة المسلمين ، كانت تطلعات الشعب المصرى تتجه نحو الثقافة الجديدة التى شاهدها عند الفرنسيس .

كان المصريون يريدون بناء وطنهم على أسس جديدة عصرية . بل كان الاتجاه السائد فى الأزهر هو هذا الاتجاه العصرى ، وليس أدل على ذلك من أن الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر اشتغل بالعلم الحديث ، وتعلم بعض اللغات ، وألف رسالةً سمّاها (كيفية العمل بالاسطرلاب) ، كما قبل كبار مشايخ الأزهر ومنهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ الفيومى والأمير وغيرهم أن يصورهم الرسامون الفرنسيون فى لوحات زيتية معروفة ، دون اعتراض أو فتوى بتحريم التصوير .

وعندما أوفدت البعثات إلى فرنسا كان من بين أعضائها : الشيخ زناتى والشيخ أحمد عليوه والشيخ محمد الدشطوطى والشيخ أحمد العطار والشيخ عبد الله والشيخ محمد عيسى والشيخ حسن والشيخ نصر أبو الوفا والشيخ أحمد الرشيدى والشيخ حسن غانم والشيخ إبراهيم الحكيم .

والحقيقة أنه لم ينبغ من الأزهريين نبوغًا خارقًا غير الشيخ رفاعة إمام البعثة ، ثم تعلم الطب ونبغ منهم الشيخ أحمد الرشيدى والشيخ نصر أبو الوفا والشيخ إبراهيم النبراوى الحكيم . أما المشايخ الآخرون فقد أهملهم التاريخ .

وحتى نستكمل صورة الرحلة القصيرة التى قام بها أبناء الفلاحين من أجل بناء مصر الحديثة . سنتحدث عن أولئك الرواد الذين صنعوا المعجزة .

وأبناء هذا الجيل لا يعلمون أن جيلاً قريبًا منهم . . لا يبعد أكثر من مائة عام قام بعمل لم نصل إليه بعدُ ، فهؤلاء الرواد استطاعوا أن ينقلوا العلوم الحديثة إلى العربية . وأن يدرّسوا هذه العلوم بالعربية ، وجامعاتنا اليوم تدرسها باللغة الإنجليزية .

ولنقف معًا مع هؤلاء الأساتذة الكبار ، ولنبدأ بمدرسة المهندسخانة أو كلية الهندسة كما نسميها اليوم .

كان كبير الأساتذة أصغرهم سنًّا وهو (محمد بيومى) الذى رويت لك مأساته فى البداية ،

وأصله من دهشور ، سافر إلى فرنسا وعاش بها تسع سنوات ، وبعد عودته عُيّن مدرسًا بمدرسة المهندسخانة ببولاق ، وتلقى عليه العلم من كانوا أكبر سنًّا منه ، ثم أصبح كبير الأساتذة عندما كان ناظر المدرسة (لا بير بك) الفرنسي . وكان بيومى يدرس باللغة العربية ، وأصدر كتبًا بعضها مؤلّف وبعضها مترجم ، ومنها كتاب (جرّ الأثقال) وكتاب (الجبر والمقابلة) وكتاب (ثمرة الاكتساب فى علم الحساب) وكتاب (الهندسة الوصفية) وكتاب (جامع الثمرات فى حساب المثلثات) وكل هذه الكتب طبعت بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٤٧ .

أما المعيد الذى عمل مع بيومى فهو (أحمد دقلة) وهو من بلدة بسيون بمحافظة الغربية ، وقد تعلم فى فرنسا ، وترجم كتاب (رضاب الغانيات فى حساب المثلثات) .

ومن أساتذة الهندسة (أحمد فايد) الذى أقام فى فرنسا عشر سنوات ، ثم عين بعد عودته مدرسًا للرياضيات بالمهندسخانة ، ثم أصبح وكيلاً لها ومن مؤلفاته (الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية) ترجمه عن الفرنسية ، وكتاب (تحرك السوائل) وكتاب (الدرة السنية فى الحسابات الهندسية) .

أريد أن أقطع هذه الرحلة الهندسية حتى لا نزهد فيها ، ولنتحدث عن الطب الذى كان يدرس فى مصر باللغة العربية منذ مائة عام !

الأسم الأول اللامع هو : الدكتور محمد على البقلى ناظر مدرسة الطب وكبير أطباء وجراحى مستشفى قصر العينى . وأصله من بلدة (زاوية البقلى) بمركز منوف حيث ولد بها عام ١٨١٥ ، ودرس بالمدارس المصرية حتى تخرج فى مدرسة الطب التى كان ناظرها كلوت بك ، ثم سافر إلى فرنسا ونال درجة الدكتوراه عام ١٨٣٨ ، واستشهد فى حرب الحبشة عام ١٨٧٦ حيث كان رئيسًا لأطباء الحملة .

وقد ألف كتبًا هامة كانت تدرس فى مدرسة الطب ، ومنها (روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى) وكتاب (غرر النجاح فى أعمال الجراح) ، وكتاب (نشر الكلام فى جراحة الأقسام) وكتاب (غاية الفلاح فى أعمال الجراح) .

وهناك أزهريان نبغا فى دراسة الطب هما الدكتور إبراهيم النبراوى والدكتور أحمد حسن الرشيدى .

وبعد أن أتم النبراوى دراسته فى مدرسة الطب أوفد إلى باريس ، وتزوّج فتاةً فرنسية ، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسًا بمدرسة قصر العينى . وترجم عن الفرنسية كتاب (الأربطة

الجراحية) وكتاب (أصول الطبيعة والتشريع العام) و(الفلسفة الطبيعية) والكتابان الأخيران من تأليف كلوت بك ناظر مدرسة الطب .

أما الدكتور أحمد حسن الرشيدى ، فقد أوفد إلى فرنسا أيضًا بعد أن أتم دراسته فى مدرسة الطب وبعد عودته من البعثة اشتغل بالتدريس ، وألف تسعة كتب فى مختلف أنواع المعرفة الطبية .

وفى عبور سريع حول هذه النهضة ، نذكر الدكتور محمد الشافعى ناظر مدرسة الطب الذى ألّف وترجم ثلاث كتب . والدكتور محمد الشباسى وله كتابان ، والدكتور عيسوى النحراوى وقد ترجم كتابًا فى (التشريح العام) ، والدكتور حسين غانم الرشيدى مؤلف (الدر الثمين فى فن الأقرباذين) ، وهو أستاذ الصيدلة ، والدكتور محمد عبد الفتاح وله أربعة كتب .

ونستطيع أن نقول إن هؤلاء العلماء وضعوا أسامس العلم الحديث فى مصر ، خلال رحلة قصيرة ربطت بين مصر وأوربا خلال ربع قرن من الزمان .

ولا أريد أن أنسى أشياء أخرى فى الحضارة نقلت إلى مصر . فقد كان الذين درسوا العلوم العسكرية نواةً لإنشاء الجيش الجديد الذى وصل إلى أبواب قسطنطينية وأوشك أن يسقط الخلافة العثمانية .

ولا أريد أن أنسى أيضا (يوسف أفندى) ناظر مدرسة الزراعة فى شبرا ، والذى درس العلوم الزراعية فى فرنسا ، ونقل إلى مصر فاكهة الماندارين ، ثم سميت بعد ذلك باسمه هو ... ولا زالت تسمى حتى اليوم باسم (يوسف أفندى) .

وبعد هذه الرحلة قامت فى مصر المدرسة التى ترجم المتخرجون فيها أكثر من ألفى كتاب فى مختلف العلوم والآداب والمعارف ، وهى مدرسة الألسن التى أنشأها رفاعة رافع الطهطاوى .

وقد قسم السيد صالح مجدى تلميذ رفاعة أبناء هذه المدرسة إلى ثلاث طبقات ... وذكر أسماء مشاهيرهم .

وأبناء هذا الجيل لا يذكرون أسماء هؤلاء الرواد ، ولهم عذرهم ، فقد وضعت الكتب التى ترجموها فى غرف مغلقة ، ولم يهتم بها أحد ، إلّا فى بعض المناسبات .

لقد كتب صالح مجدى عن واحد من هؤلاء الرواد وهو (محمد أفندى عثمان) فقال : « فريد العصر ، وفارس ميدان النظم والنثر ، البارع فى كل فن ، صاحب تعريب (العيون اليواقظ) و (قبول ووَرْد جنة) وغير ذلك من التآليف البهية » .

والرجل الذى كتبت عنه هذه السطور هو محمد عثمان جلال مترجم مسرحية (الشيخ متلوف) . . أما (قبول وورْد جنة) فهى مسرحية (بول وفرجينى) .

وكتبت صالح مجدى عن واحد منهم أيضًا هو (محمد قدرى) قائلاً :

« الأوحد ، الذى هو فى كل فن مفرد ، وهو صاحب التراجم والتآليف العديدة والتصانيف المفيدة ، فى العربية والتركية والفرنساوية ، ولهذا المفرد العلم الناظم الناثر من الكتب الجارى تدريسها بالمدارس الميرية وغير الميرية ما يشهد له بأنه فى مضمار المعارف سابق أوانه ، ليس له فى أمثاله لا حق ، وعلى الحقيقة فهو أنبل فارس منح أوطانه من علومه بديع النفائس » .

وقد اشترك محمد قدرى مع أستاذه رفاعة فى ترجمة (قانون نابليون) المسمى عند رجال القانون باسم (الكود) . واستطاع أن يقدم للثقافة القانونية العربية أخطر كتاب ظهر فى العصر الحديث ، وهو كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) ، وهذا الكتاب يضم الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة ، فى تقسيم عصرى مثل (قانون نابليون) ويضع قواعد الشريعة فى مواد قانونية محددة على النمط الحديث .

وقبل أن نعبر إلى الرحلة الثانية للثقافة المصرية الحديثة . . يجب أن نقف وقفة تأمل عند شخصية رجل فلاح من بلدة برنبال بمركز دكرنس بمحافظة الدقهلية . . اسمه على مبارك .

ولا أريد أن أتحدث عن على مبارك رجل التعليم كما اشتهر عنه ، ولا مؤسس مدرسة دار العلوم ودار الكتب . . ومؤلّف الكتب الهامة وأهمها كتابه (الخطط التوفيقية) ، ولكننى أريد أن أتحدث عن صانع الحضارة الحديثة .

إن على مبارك هو مخطط القاهرة الحديثة ، وبانى دورها الحكومية وقصورها ومدارسها وحدائقها ، وله يد فى كلّ ما نشاهده اليوم من مياه فى المنازل ، ومصابيح فى الشوارع ، وهو منقذ القناطر الخيرية من الخلل ، وبانى محطات السكك الحديدية فى أرجاء مصر على نظام معمارى موحد ، وهو أول من استخدم السكك الحديدية لنقل البضائع ، وهو الذى سافر إلى باريس ليشاهد نظام المجارى فى العاصمة الفرنسية حتى ينقله إلى عاصمة مصر ، ولكنه للأسف الشديد لم يفعل ذلك بسبب الأزمة المالية التى حدثت فى عصر إسماعيل .

وقد لا يصدق كثيرون أن الكهرباء وصلت على يدى هذا المصرى العظيم وإلى منطقة الأهرامات وكانت تسمى (الكتريك) ، فلم يلتفت كثيرون من الباحثين إلى هذا العمل

obeikandi.com

الحضارى الهام لأن كلمة كهرباء لم تكن معروفة فى ذلك الزمان ، واستخدمت الكلمة الفرنسية (الكتريك) كما هى .

لقد انقطعت رحلة الحضارة المصرية عندما تولّى حكم مصر عباس الأول . . ثم سعيد .

ولكن الرحلة الثانية إلى أوربا ما لبثت أن بدأت وكان رفاعة الطهطاوى ينظر إلى رجالها بعينين ضاحكتين ، فقد أصبح تلاميذه رجالاً كبارًا لم تنقطع عزيمتهم عن مواصلة العمل لبناء مصر الحديثة .

وكما كانت الرحلة الأولى رحلة علم . . كانت الثانية رحلة علم أيضًا ، وكان عدد أفرادها ١٧٤ مسافرًا ذهبوا لدراسة الطب والهندسة والحقوق والبحرية والزخارف ومختلف الفنون ، وبلغت نفقات الرحلة ١٦٣,٦٥٧ جنيهًا مصريًّا .

والأمر العجيب الذى يلفت النظر إلى الرحلة الثانية من رحلات الحضارة ، عادت بطبيب شهير هو الدكتور محمد درى ، كما عادت الرحلة الأولى بالدكتور محمد على البقلى ، وتولى الدكتور الدرى نظارة مدرسة الطب كما تولاها زميله السابق ، وكان مثله أشهر جراح فى مصر .

وأهم أعمال الدكتور محمد الدرى هو إنشاء مطبعة لطبع الكتب الطبية على نفقته الخاصة ، فقد أنشأ فى حارة السقايين (المطبعة الدرية لطبع الكتب الطبية) . وأصدر عددًا من المؤلفات أهمها (بلوغ المرام فى جراحة الأجسام) وكتاب (الإسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية) .

ولا يصح أن ننسى الدكتور سالم سالم الذى درس فى ألمانيا ، فقد ألف ثلاثة كتب هامة كانت تدرس بمدرسة الطب .

لقد بدأت مصر تصحو . .

ولكن حدث الصراع الرهيب بين إسماعيل وبين الشعب . . وحدث التدخل الاستعمارى الأوربى . . وسقط إسماعيل بين براثن المرابين . . وبدأت عيون أبناء الشمال تتطلع إلى استيلاء على درة وادى النيل .

كانت شعلة الحضارة متوهّجةً ، وبدأ أبناء الشام يتعلّمون الطب فى مدرسة قصر العينى ويتخرجون فيها ، وبدءوا يتجهون إلى القاهرة والإسكندرية لاقتطاف ثمرات النهضة الجديدة . .

العلوم بدأت تزدهر .

والآداب بدأت تثمر . . ويتربع البارودى على عرش الشعر العربى . . ويبدأ شوقى أوّل

خطوة نحو إمارة الشعر . . ويترجم عثمان جلال المسرح الفرنسى وتمثل مسرحياته فى دار الأوبرا . . ويكتب عبد الله فكرى بأسلوب جديد بعيد عن السجع والمحسنات البديعية .

عروس الدنيا بدأت تتزين ، وبدأ أبناؤها يعيدون صنع الحضارة .

وكما سقط إسماعيل بين براثن المرابين . . سقط بين أيدى المستعمرين .

وجاء أبناء الشمال لإطفاء الشعلة المتوهجة على شاطئ النيل .

وانتهت الرحلتان . . وأصبحت مدرسة الألسن فندقًا اسمه (فندق شبرد) . . ووضعت قصة الحضارة التى سهر على بنائها عشرات من علماء مصر فى مخازن عليها أقفال ثقيلة .

لم يعد أحد يذكر قصة الألفى كتاب التى ترجمها تلاميذ رفاعة الطهطاوى . .

ولم يبق شىء إلّا متلوف الذى أصبح اسمه الآن (متلوف ٧١) .

وأصبحنا نقول إن هذه الأعمال الجليلة التى طفت بها سريعًا . . يمكن أن تكون من التراث المصرى . . ولمّا يمض عليها أكثر من مائة عام ! !

ولكن الذى حدث هو أن جامعة دمشق أخذت هذا التراث المصرى ، وعربت به مشكورة علوم الطب والهندسة .

ويبدو أننا فى حاجة إلى رحلة داخل القاهرة أو إلى سوهاج حيث توجد مكتبة رفاعة لنكسر الأقفال التى وضعت على باب الحضارة المصرية الحديثة ونخرجها مرّةً أخرى للناس . . ولنبدأ بها رحلةً جديدةً من رحلات الحضارة المصرية الحديثة .

العظماء

١ – الشيخ حسن العطار .
٢ – رفاعة بك .
٣ – محمد بيومى أفندى .
٤ – على مبارك .
٥ – محمد قدرى .
٦ – محمود حمدى الفلكى .
٧ – عثمان جلال .
٨ – الدكتور محمد درى .
٩ – الدكتور محمد على البقلى .
١٠ – عبد الله فكرى .
١١ – محمود فهمى المهندس .
١٢ – قاسم أمين .
١٣ – قلينى فهمى .
١٤ – أمين الرافعى .
١٥ – الدكتور على إبراهيم .
١٦ – أمين الخولى .

obeikandi.com